

الفصل الخامس

شمال إفريقيا منذ الفتح العربى الى الاحتلال العلمانى

« البربر بين التوحيد وتقسيم بلاد المغرب - العرب فى الصحراء الكبرى - المماليك فى مصر - أسبانيا والبرتغال فى شمال إفريقيا العثمانيون فى شمال إفريقيا - بداية النفوذ الفرنسى فى شمال إفريقيا - مشكلة تلمسان بين الجزائر ومراكش » .

الفصل الخامس

شمال افريقية منذ الفتح العربى الى الاحتلال العثمانى

على الرغم من أن غزو العرب لشمال إفريقيا لم يمكنهم من إقامة إمبراطورية سياسية ثابتة إلا أنه أستطاع أن يحقق تغيرات اجتماعية دائمة بعد إنتشار الاسلام إلى هذه الجهات . فقد جاء عمر بن العاص فى عام ٦٣٩ م إلى مصر فاتحاً فى وقت لم تكن فيه لقوه البيزنطيه هناك قاده على أن تصمد أمام النحر كات البشرية العربيه الهائلة التى تمت خلال القرن السابع فلم تلبث أن أنهارت وأصبحت مصر ونيلها فى أيدي العرب ومن ثم فقد أسس عمر بن العاص أول مدينه عربيه فى شمال إفريقيا وهى القسطنطا . التى تقع إلى جانب بابليون فى موقع يسهل الدخول اليه من سوريا ومن الصحراء العربيه حيث تكمن مصادره القوه العربيه المركزية . وتبع ذلك سيطره العرب على بقيه الاراضى المصريه وإعادة وضع الحدود الجنوبيه التاريخيه للبلاد عند الشلال الاول بتحسين أسوان ضد غارات النوبيين (١) .

وقد أخذ المسلمون فى مصر شأنهم فى البلاد الاخرى النظام الادارى الذى أتبعته الحكومات السابقه إذ أحتفظ العرب لانفسهم فى مصر بالحقوق التى كانت للرومانيين والبيزنطيين من قبلهم . فكان الحاكم المسلم يبعث فى آواخر كل عام قبل موسم البذر الجديد بيان سنوى إلى كل منطقه وفيه نص على مقدار ما يتعين عليها تقديمه للدولة من محاصيلها ، وكان رؤساء المناطق مسئولين عن جباية

هذه الضرائب عيناً . ولم يكن للفلاحين مورد مالى غير تجاره الحنطة التى كانت تراقب على الدوام مراقبه دقيقه من قبل الدولة . فتمد كانت محاصيل الحنطة تنقل إلى بيادر أميرية حيث تعتمد الصفقات (١) .

ومع بداية القرن الثامن الميلادى كان العرب قد شملوا بانتشارهم كل إفريقيا شمال الصحراء الكبرى . فقد وصل العرب إلى برقه بعد مصر ، كما تمكن عقبه بن نافع بمعاونه البربر فى الوصول إلى جنوب تونس (٢) أو كما يطلق عليها العرب اسم « أرض النفاق » (٣) حيث شيد هناك مدينه القيروان التى جعل منها مركزاً تقدم منه العمليات العسكرية إلى الاجزاء المجاوره .

وبعد غروب قوه البيزنطيين من شمال إفريقيا بفضل الاسطول العربى الجديد وقعت قرطاجه فى أيديهم فأنشأوا فى مكانها بدلاً منها تونس التى أخذت تنهض بنفسها وتنطور بسرعة .

ولم يتمكن العرب حتى عام ٧٠٥ م من أن يوحّدوا كل الافاليم التى ضموها إلى نفوذهم فى شمال إفريقيا اللهم إلا سهول تونس الخضراء التى أستطاعوا أن يسيطروا نفوذهم عليها من القيروان . ولقد كانت نو ميديا تمثل دائماً مركز المعارضة لاي نفوذ أجنبى وظلت على ذلك لمدة قرون . أما فى الاجزاء

(١) كارل بروكمان - تاريخ الشعوب الاسلاميه - ترجمة فارس ومنير البعلبكي - بيروت - ١٩٦٥ - ص ١٠٢ .

(٢) اوقع البربر عقبة بن نافع عند نهوذا على اطراف الصحراء الكبرى حيث قتلوه فى عام ٦٨٢ هـ . والواقع أن المسجّد الذى يضم رفاقه فى المنطقة التى تحمل اسمه ، سيدة عقبة جنوب مسكرة هى أقدم أثر من فن العمارة الاسلاميه فى إفريقيا ويعود فى وقت كانت فيه العمارة لاتزال بدبطة - المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) دولاند - ص ٨٧ .

من المغرب فقد دهش العرب لمدى السهولة التي تقبلت بها القبائل البربرية لتعاليم الاسلام ومن ثم فقد كانت البربر العرب في زحفهم إلى شبه الجزيرة الايبيرية ابتداء من القرن الثامن الميلادي .

هذا ولم يألف العرب في هذا العصر التقسيم التقليدي الذي يشطر المغرب العربي إلى أربع أو ثلاث وحدات سياسية منفصلة إذ كانوا يطلقون على مراکش اسم المغرب الأقصى ، والجزائر اسم المغرب الأوسط بينما سمو القسم الشرقي من المغرب بتونس أو إفريقية . ولكن لم تتحدد بالضبط مضامين هذه الاسماء من الناحية الجغرافية ذلك لأنه لا توجد حواجز طبيعية بين حدود كل من تونس والجزائر والمغرب إذ يلاحظ أن التقسيمات الجغرافية لشمال إفريقيا تتخلل الأفطار الثلاثة عرضاً وتمتد بمحاذاة البحر (١) .

على أي حال فقد ترتب على وصول العرب إلى المغرب أن سيطر التجار البربر على جزء كبير من تجارة الشرق الغربي والأجزاء الآسيوية القريبة منها وذلك بعد أن أصبحوا يحكمون وجنود الشعوب العربية في سوريا وأجزاء من الجزيرة العربية .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي تولى العباسيون الحكم بدلا من الأمويين فانتقلت عاصمة الحكم من مدينة دمشق إلى مدينة بغداد (٢) . ولقد كان لتحول مركز امبراطورية اداريا وروحيا إلى الشرق نتائج هامة في افريقية فبدأ الانحلال يدب في أوصال الاقاليم الغربية أذ بدأت الجماعات البربرية في المغرب تنزع نزعة أستقلالية مستغلين الخلافات الداخلية بين المسلمين ومن ثم أصبحت

(١) صلاح العقاد - المغرب العربي - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ٩

(2) Nutting «A» The Araqs, Loubon, 1964, p 92 - 93.

معظم القبائل الموجودة على هوامش مراكز الاستقرار والذين كانوا يقومون بالتجارة والرعى مع السودان من الخوارج (١) .

وقد كانت هناك مجتمعات كاملة من الخوارج ذات ممالك خاصة ازدهرت خلال القرنين الثامن والتاسع كما في سجماسة أعظم مراكز القوافل في جنوب مراکش ، وكذلك في طرابلس وتونس وربما حول تاهرت في وسط المغرب وأيضا مدينة العباسية التي شيدت على بعد ثلاثة أميال جنوب القيروان والتي جعلت قاعدة لأمارة إبراهيم الأغلب ، وقد ذهب بعض البربر أبعد من ذلك وتسببوا في فرط عقد الكيان العربي في شمال إفريقية بسبب جنوحهم نحو العزلة والأفليمية المتطرفة ، وينهض على ذلك مثلا « أدريس بن عبد الله » الذي أختارته الجماعات البربرية في مراکش ليكون أمامهم في عام ٧٨٨ ، ومن ثم تحولت هذه الامامة إلى مملكة كبيرة في غرب المغرب لتتخذ أول مدينة وطنية لها في فأس .

ومع نهاية القرن الثامن استقبلت قبائل كتامة وهم أحد فروع القبالة الذين كانوا يعارضون باستمرار الحكومات المستقرة بالمغرب أحد الشيعية المعارضين للحكم العباسي في بغداد وأسمه « المهدي » (٢) الذي وفد من اليمن ونصبوه خليفة

(١) كان أهل شمال إفريقية من البربر يظهرون الاحتفاء من حكم العرب وذلك لأنهم كانوا يمارسون معاملة الرعاة المزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدسة . وهكذا وجد رمل الخوارج المفلول من العراق إلى إفريقية النفوس مستعدة لتلقى تعاليمهم ، فحرضوا البربر على الخليفة الأموي وحركوهم لدفع راية العصان انظر بروكلمان ص ١٥٩ .

(٢) اسمه الحقيقي ابا عبد الله وقد استطاع في احدى مواسم الحج إمك أن يحظى بمبايعة جماعة من قبيلة كتامة فأمروه على نفهم وسار معهم إلى بلادهم . وقد استقرت الامور لان عبد الله في رقادة عاصمة بني الاغلب وتولى زمام الحكم فيها فترة من الزمن انظر بروكلمان ص ٢٥١ .

زعيماً للبربر عام ٩١٠ م. ومن ثم أنقلت عاصمتهم من القيروان إلى مدينه المهدية المحصنه فى الشرق وذلك لتحقيق الزعامة الاسلاميه التى تتطلع اليها الفاطميون وهو الامم الجديد لاسرة هذا الوافد .

أما فى تونس فقد كانت أحسن حظاً من بقية بلاد المغرب إذ تمكن الأغالبه وأنزباؤهم العرب من الاحتفاظ بالحكم ولذلك تمكنوا من أعادة الحياه الزراعيه والاقتصاديه التى ورثوها عن الرومان خلال الحكم الاسلامى الجديد إلى أن الظروف رغم كل هذا لم تكن تشبه فى ازدهارها مثلها فى مصر فقد كانت النغيرات السياسيه فى مصر أقل خطراً عن بلاد المغرب العربى ومن ثم فقد أسس العباسيون مدينه فاخره زاخره بالقصور أطلق عليها اسم «العسكر» على أمتداد الفسطاط فى أواخر القرن الثامن الميلادى (١) . وذلك لتكون قصبه حكمهم غير انه لما تولى احمد بن طولون زمام الامور فى مصر ٨٦٨ م. أنشأ مدينه جديده على طراز سامراً إلى لسان الشرق من العاصمه المصريه القديمه فوق قطعه من الارض أقتطعت لضباطه وحنوده وموظفيه . وقد سميت هذه المدينه باسم القطاع (شكل ٢٢) . ولقد نقل إلى مدينته هذه حضارة العراق وفنونها ، وكانت هذه مزيجاً من العناصر الفارسيه والهيلينيه (٢) . وقد تباع ذلك أن وقعت مصر تحت نفوذ الفاطميين فى عام ٩٦٩ م . فتسولى الخليفه الفاطمى « المعز » حكم البلاد من القاهره التى تجاور العسكر والفسطاط .

(1) J. B. Clubb The Great Arab conquests, London 1963. 241 245 & East(G.), an historical geography of Europe, London 1950. p. 195 Oliver (R.), Ashort history of Africa Penguin African library. 1962. PP 77—78

(2) El-Gowhary, Y. Urban Studies in The Nile Delta From The Beginnings of The 19 th Century Onwards, A study in Historical giography, ph. D. Thesis Unpublished. Readings 1964, Vol L. pp. 47-49.

على أى حال فلم يتمكن الفاطميون فى شمال إفريقيا من السيطرة على مواطن البربر الأصليين أو من ثم فقد ظهرت ملك الصنهاجة المستقلة . وكان رد الفاطميين على ذلك هو إرسال عدد من القبائل البدوية المشاغبة من مصر العليا لمضايقتهم ، فإرسلوا إليهم قبائل بنى هلال البدوية (١) . التى وصلت المغرب فى عام ١٠٦١ . واتخذت كانت غزوات الهلالية تمثل هجوماً تقوم به قبائل بأكملها تستهدف الاستحواذ وسلب مناطق جاميدة للرعى ، فكانت كآسراب الجراد - كما يقول ابن خلدون - تحطم كل ما يقف فى طريقها . ومن ثم أخذت ملك صنهاجة التى وقع عليها مسؤولية التقدم الزراعى والمدنى فى السهل الساحلى الإفريقى حينئذ تعاني من التلف والخراب الذى أخذ يحل بمواطن إستقرارها ولذلك بدأت قبائل زناته تظهر فى الأفق .

ولقد ظل العرب حتى ذلك الحين يمثلون فى المغرب أعداداً ضئيلة نسبياً تمثل القشرة العليا لسكان ولكنها أخذت شديداً مع البربر . ونظراً لإستمرار وفود قبائل بنى هلال وبنى سليم إلى المغرب فقد أخذت قبائل زناته وأستعربت ولهذا فإن مجتمع البربر أخذ فى الإنحلال بالتدريج من الشرق وإيصبح ممثلاً فى جماعات متنافسة تجمع بين صفات العرب والبربر تتصارع فيما بينها ولا سيما وأن جماعات البربر تعودت على المعيشة فى المناطق الجبلية الحصينة حيث القبالة والأوراس (٢)

البربر بين توحيد وتقسيم بلاد العرب :

قامت فى المغرب فى أثناء القرن ١١ م . دولة المرابطين أو كما يطلق عليهم فى بعض الأحيان . شعب جزيرة الرباط ، الذين تمكنوا عن طريق مدينة مراکش

(1) Barbour . O. P. Cit, P 297.

(٢) رولاند - ص ٩٠

الحديثة أن يقيموا إمبراطورية قوية تسيطر على لنصف الغربى من المغرب وتقف سداً متيحاً أمام قبائل زناته التى زعزعت نهاية الطرق الصحراوية التجارية المراكشية . غير أنه بمرور الزمن فقد المرابطون ارتباطهم بالصحراء وقوتهم العسكرية ومن ثم تمكنت قبائل مصمودة لبربرية فى جبل أطلس بمراكش والتى على عدااء مع قبائل صنهاجة أن تساعد قبائل زناته على تأسيس دولة الموحدىن لتحل محل المرابطىن وذلك فى خلال النصف الأول من القرن ١٢ . وفى النصف الثانى من القرن ١٢ ضمت تونس إلى المغرب لتكون تحت لواء حكومة بربرية واحدة ومن ثم أصبح المغرب حينئذ قوة لها حسابها فى حوض البحر المتوسط .

وقد تحققت على أيدي الموحدىن فى هذه الفترة أعمال عظيمة - من وجهة النظر الجغرافية - فمست أراضى المغرب من أجل ضرائب منظمة وعادلة حسب إنتاجية الفرد وأصبحت مراكش وفزان وتلمسان والرباط مدناً جميلة متحضرة بفضل احتكاك الثقافة الأسبانية بالعربية فى شمال إفريقية .

ورغم كل ذلك فقد فشل الموحدون فى ذلك الوقت فى نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضرية بين القبائل البربرية المديدة وخصوصاً أنهم كانوا دائبين على التمييز فى جميع مجالات النشاط . بين قبائل مصمودة وزناته من جهة وبين باقى البربر من جهة أخرى . وكان هذا الفشل معناه ضعف مقاومتهم لتهديد البدو المستمر من جهة ولاضطراد زيادة القوة الأسبانية من جهة أخرى . ولنفاذى ذلك قسم الموحدون حكومة إمبراطوريتهم مع أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣ إلى قسمين شرقى وغربى حيث أعطوا للمفصصين (١) حكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية من تونس .

(١) المفصصون أحد العائلات البارزة التى ظهرت بين جماعات الموحدىن .

وقد أستطاع الموحدون أن يصدروا تيار الجماعات البدوية المتدفقة إليهم ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً ، ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها بعد تحطيم وحدة المغرب ومن ثم أخذ الجزء الغربي من المغرب العربي يقاسم من جراء هزيمته مع أسبانيا عام ١٢١٢ ومن جراء سيطرة قبائل زناته على المداخل الشرقية لمراكش في حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصيين كجزيرة مستقلة عن بقية أجزاء المغرب العربي .

على أي حال أنفرط عقد المغرب العربي في النصف الثاني من القرن ١٣ وغابت شمس أمبراطورية البربر إذ أضمحت دولة الموحدين وحل محلها بالتدريج دول ثلاث ، دولة الحفصيين في تونس ، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط ، وبني مرين في المغرب الأقصى . وقد حاولت كل من دولتي تونس والمغرب أن تبسط نفوذها على كل المغرب بأثره وتأسس دولة كبيرة على نمط الموحدين .

وقد كانت دولة الحفصيين ، أسبق الدول الثلاث ظهوراً وأوسعها إنتشاراً حيث أعلن تكوينها رسمياً في عام ١٢٣٧ واستمرت دولة مزدهرة في عام ١٥٧٤ بفصل سهول تونس الزراعية وتجارتها مع جنوب أوربا والسودان . وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فامتد من طرابلس إلى طنجة وانتهى أمر هذه الدولة بوضع نفسها تحت حماية الغزاه من أسبانيا .

أما دولة بني عبد الواد فقد ظهرت في منتصف القرن ١٣ وأخذت من تلمسان حاضرة لها وقد ازدهرت هذه المدينة في هذه الفترة إذ كانت مركزاً ثقافياً ، كما اشتهرت بحداثتها الغناء التي كانت تصدر منتجاتها عن طريق الموانئ الساحلية (١) ولم تحكم دولة عبد الواد سوى الجزء الغربي مما يقابل الجزائر حالياً . وقد كانت

هذه الدولة مطمع تونس والمغرب الأقصى ، كما كانت مدنها الساحلية تتكون
جمهوريةات مستقلة أشبه بالجمهوريةات القائمة على الساحل المواجه لإيطاليا ، ومن
ثم فقد أدى هذا التفكك إلى طمع الصقليين في الجزائر فغزوا بعض مدنها
الساحلية وأحتلوها فترة خلال القرن ١٤ ولم تتحقق للجزائر وحدتها الإقليمية
إلا في العهد العثماني .

وما هو جدير بالذكر أنه كان بين سكان هذه الدولة بعض القبائل الزناتية
التي كانت تمثل عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابئة بتراء تونس ومراكش في
الشرق والغرب على التوالي . هذه الجماعات كانت لا تتنظم تحت سلطة الحكومة
إذ كانت عبارة عن قوة بسيطة من البدو تهدد أمن المجتمعات الحضرية الآمنة .

أما في الغرب في مراكش فعاصرت الدولتين السابقتين دولة بني مرين التي
ينتمي أصحابها إلى قبيلة زناتة البربرية ، وقد بدأ ظهورهم في جنوب مراكش
في بداية القرن ١٣ ، ثم انتشر نفوذهم إلى فأس ومكناس وأخيراً استولوا على
مدينة مراكش في عام ١٢٦٩ ، وقد ورث المرينيون بحكم موقعهم الجغرافي
تقاليد سياسة الموحدين في الأندلس القائمة على تقديم المساعدات للمسلمين هناك .
وللاسف دب الخلاف بين المرينيين ودولة بني الأحمر (١) حول تملك بعض
المواني على شاطئ الأندلس مما عرض مراكش لغزو الدول المسيحية ولاسيا
بعد أن سقطت سبته في أيدي البرتغاليين عام ١٤١٥ (٢) .

وبالنسبة لليديا يلاحظ أن مدينة طرابلس كانت منذ بداية الفتح العربي أهم
مركز من مراكز العمران والنشاط في ليبيا ، حتى أن البلاد كلها كانت تعرف

(١) دولة بني الأحمر هي آخر الدول الإسلامية التي قامت بالأندلس .

(٢) المرجع السابق ١٣ .

باسمها ومع ذلك فلم تكن ترتبط دائماً بعلاقات قوية بالأجزاء الداخلية كما لم تكن سيطرتها دائمة أو تامة على هذه المناطق . أما فزان فعلى الرغم من أن بعض الكتاب العرب ذكروا أن الفتح العربى وصل إليها فى القرن ٧ م . فإن حكمومتها ظلت مستقلة تحت أمرة بنى خطاب البربرية وكانت عاصمتهم هى زويلة أما برقة فأخذت روابطها مع طرابلس تقوى بعد الفتح الغربى وذلك لوقوعها على الطريق الرئيسى بين المشرق العربى من جهة البلاد الننى فتحها المسلمون فى المغرب العربى من جهة أخرى (١) .

العرب فى الصحراء الكبرى :

أما بالنسبة للصحراء الكبرى فلم يتمكن العرب قبل غزو الهلالية المغرب من السيطرة على الصحراء الكبرى سيطرة مباشرة وذلك لأن أعدادهم كما سبق أن ذكرنا قليلة بحيث لم يكونوا الا القشرة العليا من السكان فحسب ، وكان شأنهم شأن الرومان والقرطاجيين من قبلهم يميلون الى ترك الصحراء والتجارة بها لجماعات الطوارق . على أى حال فع بداية القرن الحادى عشر كانت عملية انتشار الإسلام قد أنتقلت بصورة واضحة فى الأجزاء العربية من الصحراء الكبرى إلى أفراد قبائل صنهاجه الطوارقية لتي كانت تتحكم فى طرق القوافل بين غانا ومراكش لتمكنهم من القيام بدورهم فى تنشيط تعاليم الدين من جديد وكان لهذا الدور نتائج بالغة الأهمية لىكل من المغرب العربى والسودان الغربى على السواء (٢) .

فقد لعبت تجارة السودان عنصراً هاماً فى الانجارة المراكشية إذ كان تجار المغرب

(١) عبد العزيز طربح - من م ٣٨٥ إلى م ٣٨٩ .

(٢) رولاند - م ٩١ .

يأتون من السودان وهم حاملين معهم كميات كبيرة من الذهب ذلك إلى جانب أن تجارة السودان حققت لهم الوفير من الربح ذلك لأنهم إلى جانب مبادلتهم القائمة على استبدال تراب الذهب بسلع مرا كش كانوا يبيعون منتجات السودان للتجار الأوربيين .

ولبلاد المغرب علاقات وثيقة تربطها بالسودان التي كانت في نظر المغاربة تكون البلاد الواقعة في حوض السنغال والنييجر . وترجع هذه العلاقات إلى بدايه إنتشار الإسلام في تلك المناطق في القرن الخامس الهجرى . فقد أخذ المسلمون من المغرب على عاتقهم مهمة نشر الإسلام في تلك المنطقة ، وأصبحت المرا كز الإسلاميه في غرب إفريقيا صورة مصغرة لحضارة المغرب .

وقد تأكت هذه الصلات الروحية عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل انى كانت تجوب هذه الصحارى حامله معها المنسوجات وغيرهامن منتجات الحضارة وفي الطريق كانت القوافل تعرج على واحه تغازة حيث يكثر الملح وهو أهم ما كان يطلبه سكان السودان ويتبادلون به تراب الذهب ثم تعود القوافل حامله الرقيق ومنتجات السودان من ريش النعام والعاج وغير ذلك .

ولعل من أهم الآثار التي ترا كها المرا كشيون من جراء حملتهم على السودان أو دولة سبغى في عام ١٩٥٣ (١) : هو قيام حكمومه مرا كشييه فى وسط حوض النييجر مدة قرنين ، وظهور طبقه من المولدين فى السودان نتيجه ازواج الجنود

(١) ترجع اسباب هذه الحملة إلى ان سكان واحه تغازة يدعون للملكة سبغى المعاصرة للسعديين في مرا كش ، كما تعود أيضا لاهتمام المنصور بالجنوب منذ بداية حكمه حيث عمر مدينه مرا كش واحتل الواحات الجنوبية من توات ثم بدأ يضم السودان وذلك أنتمز فرصه لانه نجاح أحد أمراء هذه الملكة علي أخيه الحاكم وأعد حملة لفتح السودان في عام ١٥٩٠ .

المراكشيين بالنساء من أهل البلاد كما أن هذه الحملة تعد من الذكريات التاريخية التي يثيرها المغرب في الوقت الحاضر حين يطالبون بموريتانيا وبعض أجزاء من السنغال ومالي (١) .

المماليك في مصر :

لم يتمكن الفاطميون من أن يعمرؤا فترة طويلة في شمال إفريقيا إذ ما لبث أن تدفق على الإمبراطورية الإسلامية من الشرق الأتراك السلاجقة فسقطت بغداد في أيديهم في عام ١٠٥٥ وبعثها دمشق في عام ١٠٧٠ ثم قامت الحروب الصليبية بعد ذلك بحوالى ٢٨ عاماً . وكان على مصر أن تخضع لإن آجلا أو عاجلا إلى الصليبيين ولكن بفضل صلاح الدين الأيوبي الذي تولى حكم مصر في عام ١١٧١ تمكن من أن يجعل مصر درعا قويا يحمى به إفريقيا من التدخل الأجنبي وذلك حتى منتصف القرن ١٢ حينما تمكنت العناصر الجركسية والمماليك في المماليك الذين وفدوا من أسواق الرقيق فى وسط آسيا والتحقوا بجيوش الأيوبيين أن يقيموا الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة وأستطاع بيبرس وقتلاون (١٢٦٠ — ١٢٩٠) صد المغول عن إفريقيا كما قضوا على الجماعات الصليبية أيضاً .

وبالرغم من أن الحكم المملوكى كان يثبت تفوقا ظاهريا على نظم الحكم الأخرى القائمة إلى جواره منذ نهايه القرن ١٤ تقريبا إلا أن القوة الحقيقية كانت فى طريقها الى الزوال فالنصال مستمر من أجل الاحتفاظ بمركزهم فى مصر شغلهم عن العناية بأمور الري والزراعة التى تعتبر دعامة . وأساس القوة والثراء فى مصر فأدى ذلك بهم إلى الحضيض إذ أتلف المماليك أئام حكمهم مركز

الدولة التجارى وذلك بابتزازهم للنجارة وأحتكارهم لها .

اسبانيا والبرتغال فى شمال افريقية :

يتداخل لعامل الاقتصادى مع التعصب الدينى فى دفع البرتغاليين والاسبان نحو السياسة التوسعية التى أتبعوها فى شمال إفريقيا منذ أحتلال الاسبان لمدينة تطوان عام ١٤٠١ والبرتغال لمدينة سبته فى عام ١٤١٥ (١) .

ويظهر أثر العامل الاقتصادى بوضوح لما عرفنا أن مراکش أقرنت دائما فى أذهان البرتغاليين بغنينا وبتشيد اقتصاد الامبراطورية البرتغالية ، إذ كان هدف القائمين بأعمال المكشف الاستعمار فى ساحل إفريقيا العربى هو أن يتزودا من مراکش بالقمح والخيل ليشتروا بها الذهب من الرؤساء الإفريقيين الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية ثم يستخدمون هذا الذهب لشراء النوابل من الشرق الأقصى .

أما الدافع الدينى فكان سببا فى أتجاه الحملات البرتغالية (١) لاحتلال مدينتى سبته وطنجة على ساحل البحر المتوسط ، وقد أحتلت المدينة الأخيرة فى عام ١٤٣٨ . ويبدو أن الهدف من توسيع البرتغاليين فى شمال إفريقيا عن طريق ساحل البحر المتوسط وليس عن طريق ساحل مراکش المواجهة للمحيط الأطلسى هو شطر المغرب الإسلامى إلى قسمين تمهيدا لاجتياح أراضيه .

وقد أتسع نطاق الغزو البرتغالى للمغرب فى النصف الثانى من القرن ١٥

(١) لم تحفر حملة الاسبان على تطوان عن احتلال دائمه للمنطقة وذلك على النقيض من حملة البرتغال على مدينتى التى كانت أبدا أثرا فى تاريخ البلاد ، فمنه ذلك التار بنخ ومدينة سبته تزرع تحت الحكم الأجنبى سواء كان برتغاليا أم اسبانيا .

(٢) بىرى الموهري - الاكتشاف الجغرافى - الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١٢٨ .

حيث شمل هذه الفترة مراني البحر المتوسط والإطلسي على السواء . ففي عام ١٤٦٨ وضع البرتغاليون حمايتهم على آزموور ثم احتلوا أصيلة في عام ١٨٤١ ، وبعد ذلك أمتد أطباعهم إلى الجزائر فأقاموا مؤسسه تجارته في وهران في الفترة ما بين عامي ١٤٨٣ — ١٤٨٧ وحاولوا فرض معاهدة على مملكة تلمسان . وفي بداية القرن السادس عشر تحول أهتمام البرتغاليون إلى ساحل مراکش الجنوبي بعد تفوق الاسيان عليهم في الساحل الشمالي ومن ثم أصبحت وطأة الحكم البرتغالي في الجنوبي أقوى منها في الشمال وأكثر توغلا في الأراضي الداخلية إذ أمتد نفوذهم إلى مدينة مراکش ذاتها كما أسسوا ميناء مزعان .

وليس معنى ذلك أن الاسبان لم ينافسوا البرتغاليين في جنوب مراکش إذ تذكر المصادر الاسبانية أن حاكم الجزر قد أقام محطة للصيد وتجارة الرقيق في مكان سموه سانتا كرودى ماريكيينا *Santa Cruse de Marequena* وأنهم احتلوه منذ عام ١٤٧٧ الى ٢٥٢٤ (١) .

على أى حال فقد أنصرف أهتمام الاسبان منذ القرن ١٥ إلى الساحل المغربي على البحر المتوسط ولا سيما بعد أن عقدت معاهدة بين أسانيا والبرتغال في توردي سيلاس قسمت بمقتضاها المغرب إلى منطقتين . الأولى تقع إلى غرب جبر باديس وقد تركت للبرتغال والذنيه تقع إلى شرق هذه المنطة ويتولى الاسبان فيها مهمه حرب الاسترداد وكان الاسبان يحتلون حينئذ ميناءى سبتة ومليله ، فاتجهوا شرقاً إلى ساحل الجزائر حتى طرابلس .

(١) لا يعرف المغاربة اسم هذا المكان كما أنه يصعب تحديد موقع هذه المحطة غير أنه بسبب تحديد الأسبان المطالبة بهذا الموقع منذ عام ١٨٦٠ وذلك بناء على الحقوق التاريخية للشار إليها ، فقد تحال الخبراء الأسبان فأعوا أنها تقابل منطقة سبدي أفتى حالها للدراسة التفصيلية أرجع الى صلاح القادس ١٥ .

وقد قامت أول محاولة لتنفيذ خطه الاسبان في شمال إفريقيا في عام ١٥٠٥ حينما تزلت أول الحملات الاسبانية في ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر غير أن النخل الحقيقى على سواحل إفريقيا لم يبدأ إلا بعد عام ١٥٠٨ حينما أستولى الاسبان على حجر باديس ، وفي لعام التالى سقطت وهران وبجاية في أيديهم ، وفي عام ١٥١٠ دمر ميناء طرابلس وأضطرت موانئ دلس والجزائر (١) الى دفع بحرية الاسبان ، وكانوا قد قاموا أمام هذه لقرية حصنا على صخره مواجهة يعرف بالبينون (٢) . وتبع ذلك أن عقدت مملكة تلسان مع الاسبان معاهدة صلح في عام ١٥١٢ أترفوا فيها باستيلاء الاسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر .

والخلاصة أن لنفكك السياسى في شمال افريقيه قد بلغ مداه في أوائل القرن ١٦ ومن ثم فقد سهل على لغزاه الاسبان الاستيلاء على أهم موانئ الجزائر الى جانب موانئ مراكش التى احتلت في الفترة ما بين عامى ١٥٠٩ و ١٥١٥ .

وقد تمكن المراكشيون فى خلال القرن ١٧ من تخليص الجيوب الساحلية من النفوذ الاسبانى الذى ظل بها نحو قرنين من الزمن . فاشترى موانئ المعموره المهدية الآن ، فى عام ١٦٨١ وأصيلة فى عام ١٦٩١ ولكنهم فصلوا امام موانئ سبتة ومليله وهذا لم يبق من الجنوب الاودى سوء الميناء من السابقين بالاضافة الى فرغان التى تحت سيطرة البرتغاليين ولم تسترد عام ١٧٦٦ .

أما طنجة فقد أستردتها البرتغالون بعد أستقلالهم عن الاسبان فى عام ١٦٤٠

(١) كانت الجزائر في ذلك الوقت عبارة عن قرية ساحلية صغيرة .
(٢) أطلق كلمة بينون على الجزر الساحلية أو الرؤوس الداخلية في البحر والتي اعتاد الاسبان في إفريقيا أن يبنوا فوقها الحصون فمثلا سمون - حجر باديس باسم *Pou de Unles*

ثم شعروا بهجزهم عن الدفاع عنها ، فنحها ملك البرتغال لشارل الثاني ملك انجلترا بمناسبة تزويج ابنه له، وفي عام ١٦٨٤ ضرب المراكشيون عليها الحصار فانسحب الإنجليز منها .

العثمانيون في شمال أفريقيا :

في خلال القرن السادس عشر دخل الأتراك العثمانيون إلى مصر في عام ١٥١٨ ومن ثم فعن طريق موقع مصر الجغرافي تمكنوا من التقدم في شمال أفريقيا حتى المغرب وإلى الجنوب الشرقي حتى البحر الأحمر . ولذلك فقد أصبحت طرابلس وتونس والجزائر كلها ولايات في الإمبراطورية العثمانية . ولقد كان بحى العثمانيين إلى شمال افريقيه بمثابة نجده أنقذت البلاد من الغزو الأوربي وعملت على توحيد البلاد سياسيا .

وقد قسم الأتراك الجزائر إلى ثلاث مقاطعات ورثها عنهم الفرنسيون . وهذه المقاطعات وهران في الغرب وميديا أو تيطرى في الوسط وقسنطينة في الشرق . أما الجزائر فكانت تكون وحدة مستقلة عن المقاطعات الثلاث . وقد كان لإقليم القسنطينة أكبر الولايات الجزائرية ، ويليهما لإقليم وهران الذى كانت عاصمته في بادىء الأمر معسكر ، مقر الأمير عبد القادر ، ثم نقلت إلى وهران بعد جلاء الأسبان عن الميناء في عام ١٧٩٢ . أما الإقليم الثالث فكانت عاصمته ميديا . وكانت هذه الأقاليم الثلاثة مقسمة بدورها إلى قيسادات التى كان توزيعها يتفق فى بعض الأحيان مع أسس جغرافية رفى البعض الآخر حسب توزيع القبائل (١) .

(١) أثبتت الإدارة الفرنسية على هذه الوحدات الادارية وخاصة فى الداخلى التى لم ينتشر اليها الاستعمار الأوروبى . لهذا وما زالت تعرف للراكز فى شمال افريقية حتى الوقت الحاضر باسم القبايل

وقد ازدهرت مدينة الجزائر في العهد العثماني وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقدر سكانها في ذلك الوقت بنحو ١٠٠ ألف نسمة ولكن شأنها أخذ يتضاءل منذ القرن ١٨ حتى عند ما تم استيلاء الفرنسيين عليها عام ١٨٣٠ كان عدد سكانها حوالي ٣٠ ألف نسمة فقط . وقد وصفها أحد الرحالة الأسبان التي زارها في عام ١٥٨٠ فذكر أنه انتشرت بها القصور المشيدة على الطراز الأندلسي والتي كان يجلب إليها الرخام من إيطاليا ، وقد عجت هذه القصور بأجمل ما أبدعه الفن الأوربي من تحف ، والتي كان يسلبها القراصنة من الفن الأوربي (١) .

أما طرابلس فقد ظلت في حوزة الأتراك على حين لم تبقى تونس فترة طويلة في يدهم ولكنها ظلت في أيدي الجماعات الصغيرة التي تعتبر من بقايا القراصنة الانكشارية الأناضوليين الذين فتحوا لبلاد أصلا باسم الإمبراطورية العثمانية . وقد اعتمدت تونس في ذلك الوقت على التجارة والملاحة السلمية بعكس الجزائرية التي كانت تعتمد موارد البلاد بصورة أساسية من حركة الجهاد في البحر . وكانت تونس على صلات تجارية بواسطة أفريقية واستخدمت موانئها لتصدير بضائع تلك المنطقة لأوروبا . هذا وقد كانت تونس بحكم موقعها الجغرافي أكثر اتصالا بالعالم العثماني من أي ولاية أخرى في شمال أفريقية كما كانت أشد تأثرا بالنيارات السياسية والاجتماعية التي شهدتها الولايات العربية في المشرق خلال القرن ١٩ .

وقد كانت الدول الأوربية تنظر بعين القلق لتوحيد شمال إفريقية تحت سلطة دولة إسلامية كبيرة مثل الدولة العثمانية لذلك فقد دعى البابا لتأليف حلف

مسيحي هدفه الاحتفاظ لأوربا بمركزها الأمامية على الساحل الإفريقي .
وفي عام ١٧٥١ انتقلت القوى العثمانية بأساطيل هذا الحلف في موقعة «ليبانتو»
التي تعد من أهم المعارك في تاريخ منطقة البحر المتوسط إذ دارت هذه الموقعة
قرب جزيرة مالطة وتغلبت فيها قوى الحلف المسيحي وترتب على ذلك توقف
النفوذ العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، واحتفاظ الأسبان ببعض
الجيوب الساحلية في شمال إفريقية . ومع نهاية القرن ١٦ قلت حدة الصراع بين
الدولة العثمانية وأسبانيا ولا سيما عقب انحلال الحلف المسيحي بعد معركة
ليبانتو وأنصرفت حكومة الأسبانية عن الاهتمام بشئون المغرب . ذلك إلى
جانب أن الأسبان انسحبوا من الجيوب الجزائرية والتونسية وطرابلس لسببين
وهما :

- أ — صعوبة تموين المدن الساحلية التي يتركز فيها الأسبان نظراً لامتناع
السكان عن التعاون معهم الأمر الذي أدى إلى نقلهم المؤن عبر البحر المتوسط .
- ب — قيام المنازعات بين السلطين العسكرية والمدنية حول إدارة هذه
الجيوب ومن ثم فقد وقعت بين الأسبان والباب العالي معاهدة عام ١٥٨١
بمقتنعتها وضع حد للنزاع بين العثمانيين والأسبان في شمال إفريقية . غير أن النزاع
بين أسبانيا ونيابة الجزائر كان ينعقد باستمرار طوال القرنين ١٧ و ١٨ وذلك
بسبب إحتلال الأسبان لوهراة والمرسى الكبير .

ويبدو أن الأسبان قرروا الاحتفاظ بهذين الجيبين على أمل إتخاذها قاعدة
للوثوب على بقية شمال إفريقية حينما تسمح الظروف بذلك . ولكن مثل هذا
الظروف لم تأت فابدى الأسبان رغبتهم لترك وهران عام ١٧٨٥ في نظير
الحصول على حصن صغير لحماية التجارة في وهران غير أن الجزائريين رفضوا

هذا الطلب وانتهى الأمر بجلا الأسبان عن وهران في عام ١٧٩١ بعد حدوث زلزال دمر المدينة في عام ١٧٩٠ . وقد سمح لأسبانيا بأقامه وكالة تجارية في بلدة جامع الغزوات (١) التي تعرف باسم نيمور Nemours ، ويكون لها حق إستيراد القمح . وبانتهاء مشكله وهران مهد لسبيل لعقد معاهدة صلح مع أسبانيا في عام ١٨٠٢ .

بهاية النفوذ الفرنسي في شمال افريقية :

بدأ النفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا في أواسط القرن ١٦ حينما منحت الجزائر بعض الامتيازات التجارية لفرنسا . وذلك بعد أن أخذ الفرنسيون يحلون تدريجياً محل تجار جنوة الذين سبقوهم في استغلال مصايد الساحل الشالى لإفريقيه .

وقد اختار الفرنسيون موقعا بين قاله وحنايه لإنشاء ما عرف باسم حصن فرنسا في ميناء قاله وهو عبارة عن مركز تجارى محصن أعترفت الدول العثمانية بملكيتة لفرنسا عند تجديد الامتيازات في عام ١٩٠٤ ، هذا وعلى الرغم من المنازعات التي حدثت بين فرنسا والجزائر في القرنين ١٧ و ١٨ إلا أنها تمكنت من الاحتفاظ بامتيازاتها التجارية هناك وخصوصا بعد أدمجت مؤسساتها التجارية في شركة واحدة تحب اسم الشركة الملكية الإفريقية في عام ١٧٤١ .

أما في تونس فكانت الدويلات الايطالية تلعب الدور الرئيسى فى علاقاتها منذ لعصور الوسطى فكان تجار جنوة والبندقية يترددون على ساحلها و يقيمون الفسادق ، ولذلك كان على فرنسا أنى تزيج مؤسسات جنوة التي تعمل فى صيد

(١) ميناء مشهور لصيد الاسماك بالجزائر وتوجد به مصانع لتجفيف الاسماك وحفظه وتعليب السردين وتصديره .

الأصداف والتي كانت تركز في طبرقة . وبلغفل أستطاعت فرنسا بفضل صداقتها مع الباب العالي أن تنشأ في تونس شركة تجارية منافسة لاطاليا وفي نفس الوقت أى منذ عام ١٥٧٩ بدأ التجار الفرنسيون في الظهور في بنزرت . وتبعاً لذلك تعرضت فرنسا للحملات لويس الرابع عشر التي كانت موجّهة أساساً ضد الجزائر ومن ثم فقد فرضت فرنسا عليها معاهدة في عام ١٦٨٥ تنصّ فيها تونس باحترام الامتيازات الفرنسية بما في ذلك تحديد الضريبة الجركية على البضائع الفرنسية بحد أقصى قيمته ٣ بالمئة . وقد جددت هذه المعاهدة في عام ١٧٢٨ وتبعت بعقد معاهدات أخرى مع معظم الدول البحرية مثل هولنده والدنمارك وأنجلترا وجميعها تأكد امتيازات هذه الدول لصيد الأصداف وإقامة الحصون لهذا الغرض على بعض المراسى والجزر مثل طبرقة وتانكرت (١) .

مشكلة تلمسان بين الجزائر ومراكش :

تقع تلمسان في غرب الجزائر قرب الحدود المراكشية ، وتربط كثير من أسرها بصلات القرابة مع أهل فأس ولذلك فعندما أحتلت القوات الأسبانية المدينة عام ١٥٤٣ بعد تدهور أحوال الأسرة الزيانية لتجّسه أهل تلمسان إلى مراكش لكي تتدخل لحمايتهم من الاحتلال الأسباني . ولما كانت السياسة الأسبانية تقوم أساساً على عدم التوغل في الداخل فسرعان ما تركوا المدينة ليقوم المراكشيون بالاستيلاء عليها الامر الذي أستاذ له العثمانيون في الجزائر وخصوصاً أن هذه المدينة كانت تقع نفوذهم . وفي الواقع إن موقع هذه المدينة جعل أهلها يترددون بين القوتين الرئيسيتين في شمال إفريقيا وهما القوة

(١) المرجع السابق - من ص ٤٤ إلى ص ٥٢ .

السعودية في مراكش والعثمانية في الجزائر وأنهى الأمر باحتلال الحاكم
العثماني بالجزائر لنلمسان في عام ١٥٥٠ ، وأستمرت منذ ذلك الوقت جزءاً من
الولاية العثمانية ولكنها بقيت مع ذلك مشار نزاع بين دولة مراكش وحكومة
الجزائر ونشأت بينهما مشكلة حدود .